

دلائل الإعجاز

ومن عادة قومٍ ممَّن يتعاطى التفسيرَ بغير علمٍ أن يتوهَّموا أبدأً في الألفاظ الموضوعية على المجاز والتمثيل أنها على طواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ويُطلوا الغرضَ ويمنعوا أنفسهم والسماعَ منهم العلمَ بموضع البلاغة وبمكان الشرق . وناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يُكثرون في غير طائل هناك ترى ما شئتَ من باب جهلٍ قد فتحوه وزندٍ ضلالةٍ قد قدحوا به . ونسألُ الله تعالى العصمة والتوفيقَ .

فصل في الكناية والتعريض .

هذا فنٌ من القول دقيقُ المسلم لطيفُ المأخذ وهو أنزَّاه نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض . كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب . وإذا فعلوا ذلك بدت هناك محاسنٌ تملأ الطرف ودقائقٌ تُعجزُ الوصف . ورأيتَ هناك شعراً شاعراً وسحراً ساحراً وبلاغةً لا يكمل لها إلا الشاعرُ المُفلقُ والخطيب المصقِّعُ . وكما أن الصفة إذا لم تأتْ مُصرَّحاً بذكرها مكشوفاً عن وجهها ولكن مدلولاً بغيرها كان ذلك أفخمَ لشأنها وألطفَ لمكانها . كذلك إثباتُ الصفة للشيء تثبتيُّها له إذا لم تُلقَ إلى السامع صريحاً وجئتَ إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة كان له من الفضل والمزية ومن الحُسْن والرونق ما لا يقلُّ قليلاً لا يُجْهَلُ موضعُ الفضيلة فيه .

وتفسيرُ هذه الجملة وشرحُها أنهم يرومون وصفَ الرجل ومدحَه وإثباتَ معنًى من المعاني الشريفة له فَيَدعون التَّصريحَ بذلك ويُكَدِّون عن جعلها فيه بجعلها في شيءٍ يشتَمِلُ عليه ويتلبَّسُ به . ويتوصَّلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات لا من الجهة الظاهرة المعروفة بل من طريقٍ يخفَى ومسلَكٍ يَدِقُّ . ومثاله قولُ زيادٍ الأعجم - الكامل - :